

مداخلة: المخطوطات العربية في منطقة القبائل و ظاهرة تعايش اللغة واللهجات العربية مع الأمازيغية - مخطوط الشيخ الحداد أنموذجا-.

لعبت المخطوطات العربية منطقة القبائل التي ألفت في مختلف الرباطات المنتشرة في مختلف أنحاء منطقة القبائل دورا مفصليا في تاريخ المنطقة وتاريخ الجزائر بشكل عام وتخرجت بفضلها نخبة من العلماء الذين حملوا على عاتقهم مهمة نشر الدين الإسلامي الحنيف بين سكان منطقة القبائل كما ساهموا في إثراء اللهجة القبائلية بمصطلحات ومفاهيم جديدة أصبحت متداولة في المنطقة إلى يومنا هذا.

ونظرا لهذا الزخم المعرفي الجديد ظهرت بعض المخطوطات العربية على غرار مخطوط الشيخ الحداد وهو معجم صغير ثنائي اللغة عربي- قبائلي وهو يشكل دليلا على التعايش اللغوي الذي كان سائدا في منطقة القبائل وانعدام التعصب اللغوي لأي شكل من أشكال التعبير اللغوي تعتبر لبنات أساسية للهوية الوطنية الجزائرية وتثبت أن القبائل اهتموا ألفوا معجما يصبوا لتحقيق أهدافا نبيلة تجمع شمل الجزائريين خلافا للمعاجم اللغوية ثنائية اللغة التي ألفها الاستعمار والتي كان تُخدم سياسة فرق تسد.

الكلمات المفتاحية: مخطوط عربي - لهجة قبائلية - ثنائية لغوية - تعايش لغوي.

Résumé :

Les manuscrits arabes écrits dans les zaouïas décimées un peu partout en Kabylie ont joué un rôle primordial dans l'histoire de la région et de l'Algérie en général ; ils ont contribué à la formation d'une élite de savants en théologie qui ont pris sur eux de propager l'Islam parmi les autochtones. En outre, ils ont enrichi le dialecte kabyle par des termes et des concepts nouveaux qui sont toujours utilisés de nos jours.

En raison de ce nouvel élan cognitif, des manuscrits arabes ont fait leurs apparitions à l'instar de celui du Cheikh Al Haddad, il s'agit d'un petit dictionnaire Arabe-Kabyle qui prouve la cohabitation linguistique pacifique qui régnait en Kabylie autrefois et l'inexistence de l'intolérance linguistique envers toutes les formes d'expression linguistique qui constituent des fondements essentielles de l'identité nationale algérienne et prouve encore une fois que les kabyles ont conçu un dictionnaire pour des fins nobles qui rassemblent et unissent tous les algériens contrairement aux tentatives des linguistes français qui ont conçu des dictionnaires bilingues mais dans l'objectif de diviser pour mieux régner.

Mots clés : manuscrit arabe- dialecte kabyle Kabylie – bilinguisme – cohabitation linguistique.

المدخلة:

لطالما اعتبرت المخطوطات قديما في بلاد المغرب الوسيلة الوحيدة لانتقال المعرفة بين العلماء وطلبة العلم وكثيرا ما عاملها العامة بكثير من الاحترام يصل إلى حد التقديس على اعتبار أنها معظمها يعنى بالعلوم الفقهية التي تسهل عليهم فهم أمور دينهم، كما أن من ألفوها يحتلون مكانة خاصة في قلوبهم فهم كانوا يبجلونهم أيما تبجيل في آخر المطاف ورثة الأنبياء.

ورغم انتشار اللغة العربية بين البربر وتقديسهم لها باعتبارها لغة دينهم، فإن بعضهم قد عبر عن خواطره أحيانا بالبربرية ولكن بحروف عربية، وكان هذا شائعا بين المتعلمين منهم، أي أولئك الذين يريدون أن يوصلوا معلوماتهم إلى قرائهم بالبربرية. فالمؤرخون إلى الآن لم يحلوا لغز الخطبة الشهيرة لطارق بن زياد، هل كانت بالعربية أو بالبربرية، وفي كلتا الحالتين هل كانت شفوية أو مكتوبة؟ وقد شاع بينهم أن ابن تومرت قد كتب تأليفه (أعز ما يطلب) بالبربرية، التي لعله أحسن بقوته فيها أكثر من العربية التي كان يعرفها جيدا أيضا، أو لعله أراد أن يوصل تعليماته إلى قرائه من البربر أيضا: والواقع أن البربرية لم تكن شاذة في استعارة الحروف العربية واستعمالها في التعبير بها عن أصواتها.¹

ومهما يكن الأمر فإن بعض الفقهاء من البربر كانت تحملهم الغيرة على الدين إلى محاولة توصيل معلوماتهم إلى قرائهم ليتعلموا أمر دينهم. ومن الكتب المؤلفة على هذا النحو كتاب (الحوض) لصاحبه محمد بن علي بن إبراهيم السوسي... إن (الحوض) كتاب في الفقه على غرار رسالة ابن أبي زيد القيرواني. ألفه السوسي بالبربرية وبحروف عربية، وجعله نظاما حيث بلغ جزأه الأول 960 بيتا.²

وفي السياق نفسه، يقول الأستاذ صالح بلعيد أن " الازدواجية اللسانية و التي تعني البينية اللغوية و التداخل و الاندماج و هي أمور تلقائية منذ الفتوحات فلا قهر لغوي قد أحدث، وإنما حصل الميل لصالح العربية دون كره، فالعربية والأمازيغية لم تصبحا في عرفنا الآن لغة عربية واحدة، ولغة أمازيغية أصلية، فهما من شجرة واحدة، أصبحتا لغتين مندجتين و متراكبتين، تجانست بنياتهما المعجمية قي ثنائية تحيل إحداها على الأخرى في سياق اعتراف المجتمع الجزائري بانتمائه إلى مرجعيته الحضارية : الأمازيغية والعروبة و الإسلام.³ ولعل هذا المخطوط الذي ألفه زعيم روجي جزائري وقائد عسكري فذ لدليل على ما قاله الدكتور صالح بلعيد الذي بالمناسبة حقق ذات المخطوط.

ويضيف ذات الباحث أن " الفرق بينهما في التوزيع الوظيفي فكان بينهما تقسيم أدوار؛ خط الأصالة في البيت وخط الثقافة في المدرسة، وبذلك أنتجتا تاريخا و حاضرا مسبوقين للتناغم والانسجام والاستقرار اللغوي، ومن وراء ذلك حدثت إستراتيجية التجانب Juxtaposition السلمية مكونة ثقافة إسلامية ركيزتها اللغة العربية؛ لغة القرآن الكريم".⁴

وحتى الباحثون المتأثرون بالدراسات الغربية يقرون بمنزلة ومكانة اللغة العربية ومدى تأثيرها الراسخ في الوضعية اللغوية لبلاد المغرب بشكل عام، حيث نجد سالم شاكرا يؤكد أنه "فمنذ أكثر من 13 قرنا والبربرية في اتصال دائم مع اللغة العربية، ومن الجلي أن هذا الاتصال هو اتصال من نوع خاص وهو بدون أدنى شك أكثر وثاقفة من المبادلات التي حدثت في مراحل سابقة (خاصة مع البونيقية واللاتينية)، حيث يمكن اعتبارها اللغة الوافدة الوحيدة التي استطاعت أن تترسخ في بلاد المغرب".⁵

1- أهمية مخطوط الشيخ الحداد:

للمخطوطات أهمية كبيرة لدى كل الأمم التي عرفت في يوم ما حضارة أشعت في حقبة زمنية معينة ما علما استفاد منه من حولها من شعوب متخلفة عن ركب الحضارة، فهي تعتبر دليلا لا نقاش فيه حول عراققتها وتاريخها لأنها تحمل بين ثناياها علم وثقافة الأمة،

يلخص محقق المخطوط الدكتور صالح بلعيد أهمية المخطوط في النقاط التالية⁶:

1- هذا المعجم يشكل قيمة معرفية وتاريخية لا يستهان بها، إذ يعد من المحاولات المعجمية القليلة التي حاولت أن تقيم جسور التواصل والتزواج بين اللغتين العربية والقبائلية، وذلك بتقريب الأولى إلى أذهان الناطقين بالثانية.

2- كما حفظ لنا المعجم العديد من الاستعمالات القديمة للقبائلية التي لم يعد لها تداول في وقتنا الحالي، وهذا دون أن ننسى اعتبار المعجم وثيقة تاريخية أرخت للواقع اللغوي في عصر المؤلف، ليميط اللثام عن جانب مهم من حياة الإنسان القبائلي في تلك الفترة.

3- وإن المعجم يعد لبنة طيبة يؤسس لبناء صرح معجمي للغتين العربية والمزابية، إذ رغم التاريخ الطويل والمشارك الذي جمع بين اللغتين، إلا أنهما تبقيان تفتقران إلى معاجم تدرس مختلف الظواهر اللغوية التي أفرزها هذا التزواج الذي جمع بينهما على مدى قرون طويلة، وهذا الأمر وإن حصل سيكون بمثابة رد قاطع على كل مشكك يحاول افتعال وجود تصادم بين هاتين اللغتين.

2- وصف المخطوط:

يتكون هذا المعجم الصغير على مئة ورقة (100) منها ستة وستون 66 ورقة مكتوبة، والباقي

فارغة في المخطوط الأصلي، وهي النسخة الأصلية الوحيدة التي تحصلنا عليها، وليس لها مثيل، لأن

أصل التحقيق يعتمد على الأقل نسختين.⁷

أما الكلمات المترجمة من القبائلية إلى العربية عددها تسع مائة وخمسة وأربعين كلمة 945

منها الأسماء والصفات والفروع والألوان، وبعض الأسماء المناخية، والأراضي والسموات، وما إلى ذلك،

أما اللغة المستعملة فهي عربية دارجة إلا قليل من الألفاظ فهي باللغة العربية الفصحى، كما فصلت

بين الحيوانات الأليفة والحيوانات البرية، وكذا المتوحشة، وذكر الحشرات النافعة والضارة، لنميز بين

النحل واليعسوب، والطيور كالحمام والنسر، والأشجار المثمرة وغير المثمرة، والأدوات المستعملة في

الفلاحة والصناعات التقليدية كالنسيج، وبعض الأكلات الشعبية الخاصة بمنطقة القبائل. (ص 8)

الخاتمة بين المؤلف فيها ترجمة الكلمات من القبائلية إلى العربية، ثم نبه القارئ إلى كيفية قراءة

الكلمات، وتعليم الحروف الهجائية، ونطقه+ لتسهيل مهمة الكتابة والقراءة، وتمنى كل التوفيق

والاستعانة بالله العلي القدير.⁸

3- رمزية كتابة القبائلية بالحروف العربية في مخطوط الشيخ الحداد:

يؤكد مبارك الميلبي أنه " ليس للبربر في القديم نظام في الكتابة: يكتبون من اليمين إلى اليسار،

و من اليسار إلى اليمين، و من أعلى إلى أسفل، و من أسفل إلى أعلى. و لما جاء العرب أثروا

بنظامهم فصاروا يكتبون من اليمين إلى اليسار . و بطول المدة نسي المختلطون بهم الحروف البربرية

وصاروا يكتبون لغتهم بحروف عربية. و لم تعش حروفهم إلا بين المثلثين في مجاهل الصحراء فإنهم لا يزالوا يكتبون بها إلى هذا العهد.⁹

وفي ذات السياق، يشير عثمان الكعاك أن هذه اللغة "بقيت بعد الإسلام. وبعد إسلام البربر الذي حسن منذ القرن الأول، وعدلت في الغالب عن الخط اللوي القديم وكتبت بالحرف العربي، كتبت به تصانيفها الدينية الإسلامية، وشعرها وحكاياتها ونوادرها ودرس المسلمون هذه اللغة العجيبة وصنفوا كتباً في المقارنة بينها وبين العربية والعبرانية، وألفوا معاجم لها وللعربية معاً، واعتنى أصحاب المعاجم النباتية من الغافقي إلى ابن الجزار إلى ابن بيطار بإيراد التسميات البربرية للنباتات التي يصفونها وبقيت هذه اللغة لغة البلاط في الأسر المالكة البربرية من صنهاجيين وحفصيين وحماديين وزناتيين ومرابطين وموحدين.¹⁰

ويوصي صالح بلعيد بكتابة الأمازيغية بالحروف العربية في حال لم تعتمد حروف التيفيناغ وذلك نظراً " للقواسم المشتركة بين اللسانين والتداخلات التي حدثت بينهما، كما أن أول رسم عرفته الأمازيغية بعد التيفيناغ هو الرسم العربي، وكتبت به في المغرب العربي إلى غاية السبعينيات، باستثناء كتابات المعمرين وضباط المخابرات الذين يدونونها باللاتينية كما تتجلى قواسم صوتية ودلالية كثيرة في زخم الاحتكاكات اللغوية على مستوى الاستبدالات التي جرت في الساحة اللسانية الجغرافية إلى أن وصلت حد اضمحلال أو ذوبانها في العربية".¹¹

فضلا عن ذلك، يقول عز الدين المناصرة أن "الأمازيغية تفاعلت مع اللغة العربية، طيلة خمسة عشر قرنا قد امتصت آلاف الكلمات والصيغ، كذلك تأثرت العربية العامية الجزائرية، بالصيغ الأمازيغية، فإن الحل الثاني المقترح - بعد حل كتابتها بالتيفيناغ- هو أن تكتب الأمازيغية بحروف عربية لعدة أسباب منها :

1- اللغة ليست محايدة و الحروف و شكلها ليس محايدا ، فكتابتها بحروف عربية يساهم في

التقارب الأخوي بين العرب و الأمازيغ من الناحية الوطنية و السايكولوجية.¹²

2- أقرب مصدر للأمازيغية (حروف التيفيناغ التواركية) هو اللغة الكنعانية الفينيقية

القرطاجية . فالمصدر الأساسي للأمازيغية إذن هو الألفبائية الكنعانية التي تفرعت منها

كل لغات العالم.¹³

4- المخطوط وظاهرة الاقتراض من اللغة العربية:

لا شك أن أي لغة لا يمكن أن تكتفي بما ورثته من كلمات و ألفاظ. بل تفرض عليها

الحاجات المستجدة و التحولات و التطورات المستمرة اللجوء إما إلى الإبداع و التوليد المعجمي أو

الاقتراض من اللغات الأخرى مع تكييف ما تم اقتراضه مع المعطيات الصوتية الخاصة بها.¹⁴

" إن التفاعل بين اللغات ينتقل من اللغات المهيمنة إلى اللغات المهيمن عليها على شكل

اقتراض المعجمي، ويحفزه هذا الأخير في الغالب وجود فراغات معجمية•، و كذا العوامل اللسانية

الداخلية على غرار الحاجة إلى مرادفات أو ضعف تردد • بعض الفونيمات، فضلا على العوامل غير اللغوية مثل ضعف التطور التكنولوجي وكذا السيطرة الإعلامية.¹⁵

لم يقتصر الاقتراض الكثيف للألفاظ العربية من قبل كل اللهجات الأمازيغية في شمال إفريقيا بدون استثناء، على المفاهيم الجديدة على غرار المفاهيم الدينية للإسلام، لكن تعداه ليشمل مجالات أخرى. ذكر منها سالم شاكر: ¹⁶

- الحياة الروحية والدينية (حيث المفردات مقترضة بشكل مكثف من قبل اللهجات الثلاث).

- النشاطات الاقتصادية (المتعلقة بالتبادلات التجارية) ، الشيء الذي يفسر التعريب القديم للأرقام في اللهجة القبائلية و في أغلبية اللهجات " المتوسطة " .

- النشاطات الفكرية.

- المصطلحات الشاملة (المصطلحات التي يشمل معناها عدة كلمات).

كانت اللغة الأمازيغية وعلى مدى آلاف السنين على اتصال دائم مع لغات ناقله أخرى على غرار البونيقية، اللاتينية، العربية، الفرنسية والإسبانية. من بين كل هذه اللغات، تعتبر اللغة العربية أكبر من أثر فيها خاصة في المستوى المعجمي.¹⁷

يتساءل هنري باسي " هل اللغة البربرية هي لغة غير متبلورة، محكوم عليها بالخضوع لكل

التأثيرات الأجنبية بدون أن تحرك ساكنا؟" لكنه يجيب بالنفي ويقول: " هنا تكمن أكثر سماتها إثارة

للاهتمام؛ حيث ورغم أنها تمتص كلمات أجنبية بسخاء، مانحة لها الأفضلية لدرجة أنها تحمل ألفاظها

الأكثر تداولاً من أجل هذه الكلمات، تبنها كألفاظها الخاصة من خلال إلباسها حلة بربرية.¹⁸

و يبدو هنا أن اللهجات الأمازيغية " كَيْفْت " و "بربرت" أو "مزغت" بسهولة عددا من

المفردات والأصوات الأجنبية، إذ نجد فيها كلمات لاتينية على غرار الروضا (Rota) وهي العجلة و

الريبا (Ripa) وهو المنحدر وأورثو (Hortus) و هو البستان (35 % من القاموس القبائلي

عبارة عن كلمات عربية) إلى جانب كلمات فرنسية و اسبانية... الخ.¹⁹

وهكذا يؤكد محمد علي دبوز في كتابه تاريخ المغرب العربي أن اللغة العربية كانت لانتشارها،

واصطبغ الألسن في الدولة الرستمية بها. قد فاضت على اللغة البربرية فمازجتها. ودخل فيها كثير من

الألفاظ العربية. فترى لغة أهل المدن سيما العلماء إذا تكلموا بالبربرية ثلث ألفاظها عربية قد

تبربرت.²⁰

لعل ذلك مردّه أن اللغة البربرية " سلسلة مرنة ، تقبل كل الألفاظ الدخيلة فتبربرها فتصبح

جزءاً منها ، فاللغة البربرية فيها كل العناصر التي تتركب منها العربية ففيها الاسم و الفعل والحرف

وفيهما أساليب العربية من نظم و نثر ومن حقيقة ومجاز.²¹

ويمكن التأكد من المعطيات السابقة من خلال المفردات الواردة في معجم الشيخ الحداد

كالآتي:

مثل:

الغزال لَغْزَالٌ ثَاغْرَالْتُ

الجراد أَجْرَادٌ.

الطيور لَطِيرٌ

البردعة ثَبْرَدَا

البلوط أَبْلُوطٌ

خاتمة:

رغم الدور الهام الذي لعبته المخطوطات العربية في منطقة شمال إفريقيا كحافضة لمختلف العلوم الدينية والدينيوية على غرار الفقه والتفسير والفلك وغيرها يبقى المخطوط الذي تناولناه بالدراسة في هذه المداخلة يشكل مصدرا مهما يجب أن يستفيد منه علماء اللهجات والتهئية اللغوية لدراسة اللهجات العربية والأمازيغية دراسة تاريخية مقارنة فضلا عن اثناء معجم اللغة الأمازيغية المشتركة لتستفيد من هذا المعجم اللغوي.

الهوامش:

¹ أبو القاسم سعد الله، أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر ، ج 4 ، ط 1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1996 ، ص ص 206-207.

² المرجع نفسه، ص 207 .

³ صالح بلعيد ، مقالة : اللغة الأم و الواقع اللغوي في الجزائري، اللغة الأم ، مجلة تتناول مقالات في اللغة الأم ، جماعة من المؤلفين ، الجزائر 2004 ، دار هومة ص ص 31 - 32.

⁴ المرجع نفسه، ص 32.

⁵ Salem Chaker, Manuel de linguistique berbère– Il Syntaxe et diachronie, Alger : 1996, ENAG Editions. P.117 .

⁶ المعجم العربي المازيغي، معجم الشيخ محمد أمزيان الحداد، حققه الأستاذان الدكتور صالح بلعيد والدكتور بلقاسم منصور، منشورات "مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر"، 2012، ص 7.

⁷ المرجع نفسه، ص 8.

⁸ المرجع نفسه، ص 10.

⁹ مبارك بن محمد المليي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج 1، المؤسسة الوطنية للكتاب، د ط، الجزائر، 1989، ص 121.

¹⁰ عثمان الكعاك، البربر، منشورات تاوالت، أعده للنشر تامغناست، دون ذكر البلد، د ط، دت ، ص 79 .

¹¹ صالح بلعيد ، اللغة الأم و الواقع اللغوي في الجزائر ، ص 19.

¹² عز الدين المناصرة، المسألة الأمازيغية في الجزائر والمغرب، إشكالية التعددية اللغوية، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط 1، عمان، الأردن، 1999، ص ص 69 - 70.

¹³ المرجع السابق، ص ص 75 - 76.

¹⁴ محمد أوسوس، أموال نثمودن، معجم حيواني (فرنسي-أمازيغي-عربي) مؤسسة تاوالت الثقافية، كاليفورنيا، د ت، ص 23.

• الفراغ المعجمي : عدم وجود كلمة واحدة في لغة ما لتدل على شيء معين مما يضطر متكلمو هذه اللغة إلى استعمال عبارة أو جملة للدلالة على هذا الشيء .

• تردد : يقصد به عدد المرات التي يتكرر فيها اهتزاز الوترين الصوتيين ، أو عدد ذبذبات الموجات الصوتية في ثانية من الوقت.

¹⁵ Ahmed Boukous , L'emprunt linguistique en berbère , dépendance et créativité , Etudes et documents berbères 6, La boîte à document, Paris, 1986,P 08.

¹⁶ Salem Chaker, Manuel de linguistique berbère– Il Syntaxe et diachronie, P .118.

¹⁷ Michel Quitout, Grammaire berbère (rifain, tamazight, chleuh, kabyle), Paris : 1997, L'harmattan. P. 28.

¹⁸ Henri Basset, Essai sur la littérature des berbères, Paris : 2001, Ibis Press, P. 26.

¹⁹ محمد العربي عقون ، الأمازيغ عبر التاريخ ، نظرة موجزة في الأصول و الهوية . ط 1 . الرباط : 2010 ، التنوخي للطباعة والنشر

والتوزيع، ص ص 31-32.

²⁰ محمد علي دبوز ، تاريخ المغرب العربي ، الجزء الأول ، كالفورنيا : 2010 ، مؤسسة تاوالت الثقافية ، ص 366 .

²¹ المرجع نفسه ، ص 52 .